لست أومن بالانسان

للأستاذ زكي نجيب محمود

وقع لي منذ سبع سنوات كتاب ، لعله أنفع ما قرأت من الكتب ، لأنه غاص بي إلى قلب الطبيعة ولبابها ؛ فقد كنت قبل قراءته لا أفهم إلا عن بني الإنسان دون ألوف الألوف من الكائنات التي تملأ فجاج اليابس وأغوار الماء ، فعلمني هذا الكتاب النفيس كيف أفهم عن الحيوان ما يريد . فلئن كان الإنسان يلوك لسانه يميناً ويساراً ويخبط به في أعلى وأسفل ليرمز بهذه الحركات إلى معان ، فليس الحيوان بأقل قدرة منه في ذلك . يتناقل أفراده المعاني بهز الأذناب وتحريك الأهداب . . . وقد كان على بلغة الحيوان موضوع فكاهة وسخرية من أصدقائي جميعاً ، يلذعونني بنكاتهم كلما نهق حمار أو زقزق عصفور ، ولكني مضيت في دراستي لا يثنيني ما لقيت في الدرس من مشقة وعناء ، لأني رأيت أنه إن جاز لماهد العلم أن تفنى من ظلابها زهرات أعمارهم في دراسة لغة قديمة درس أهلها وطواهم الزمن

في جوفه العميق ، تخليق بواحد من بني آدم أن يعنى بلغات « أقوام » تعاصرنا وتعاشرنا وتبدل لنا وحشة العالم بهجة وأنسا . وأحمد الله أن كتب لي التوفيق فأعانني على بلوغ ما أريد . فهأنذا أجلس إلى مكتبي ذات مساء ، والليل منشور الدوائب ضارب بجرانه ، والسكون عميق لا أسمع فيه إلا حفيفاً خفيفاً وهمساً خافتاً ، وهاتان فراشتان قد التقتا تحت مصباحي وأخذتا تسمران بحديث رائع جذاب ، لم أملك معه إلا أن ألقي الكتاب جانباً لأنصت ...

— لقد أنبأتني زميلة حديثاً عجيباً هذا المساء : أنبأتني أن كاتباً بليغاً من بني الإنسان قد رفع القلم يجول به ويصول في عشيرته من بني آدم ، ليقول في ورع وإيمان إنه يؤمن بالإنسان !

— وفيم كل هذا العناء ؟

— لأنه واحد من بني الإنسان ! ياليت شعري ماذا تقول الأبقار لو تحركت بين حوافرها الأقلام ، وماذا تزعم الأطيار لو كان تغريدها كلاماً من الكلام ؟

— وهل تؤمن البقرة إلا بقبيلة الأبقار ، والعصفور إلا بقبيلة الأطيار ؟

وجاء برغوث يقفز حول الفراشتين جذلان فرحاً ، ويحوم فوقهما صاعداً هابطاً ؛ ولم أكن واأسفاه قد أتقنت لغة البراغيث

ويقفون في طريق تحقيق بعض الغايات الكبرى من خلق الإنسان

هؤلاء لا تزال منهم بقايا كثيرة في الشرق ، بل هم الكثرة الغالبة فيه . وهم الذين جعلوا إنسان الشرق كأكداس الحصيد وأهراء الغلال التي تترك في أماكنها حتى تقتلها الآفات وينخر فيها السوس ... وهم بذلك يضيعون على الإنسانية ثروات تحصل عليها من تشغيل أفكار هؤلاء الملايين وأيديهم . وهم بذلك يتركون أفراد الناس من غير تنسيق وتنظيم في الحشد والتعبئة للمعابد والمعاهد والمعامل والحقول والجيوش ...

هؤلاء ينبغي أن يزيلوا عن عيونهم غشاوات القرون الأولى ويعدلوا أفكارهم على مقتضى ما توحيه سنن الله الدقيقة التي تجعل من تصرفات جميع قوانين الطبيعة في وقت واحد لحناً موسيقياً متسقاً يشترك في توقيعه كل شيء ... ويعلموا أن الكفر بعلوم الطبيعة والفسق عن نظمها كالكفر بعلوم العقائد والفسق عن نظم الأخلاق

إن الإيمان بالعلم وتنظيم الحياة الإنسانية بطرقه وإطلاق الأفكار فيه هو الدين الواحد الذي يدين الإنسانية جميعها وتلتقي عليه بأفكارها وأيديها ... وقد جعلها تلمس عرشها المرموق ، وتعرف دولتها المأمولة في مستقبل الحياة ...

ولكن أين العصا السحرية التي ستفعل في تعديل شهوات الأمم وغرائزها وتعصباتها الذميمة ، بحيث تجتمع على خدمة العلم والحياة بأفكارها وأيديها ؟

ذلك ما يسأل عنه رجال التربية والمفكرون في الدين والاجتماع

رجال التربيـة فلاحو حقول الطفولة : منطقة النمو الدائم وملعب أسرار المستقبل ...

ورجال الفكر رسامو المثل العليا القادرون على استدراج الناس إليها وسجنهم فيها ...

ولكن هؤلاء وأولئك لا يزالون بعيدين عن مقاليد الحكم وتسلم مقاود التطبيع بينما مكانهم هناك لو صحت الأوضاع ... ولا يزال محترفو السياسة والدجالة بها المتخلفون عن بلوغ القمة في الفكر والخلق هم النالبين المتسلطين ...

وهؤلاء هم سر البلاء النازل الآن بالناس ، كما كانوا في القديم ...

عبد المنعم خلاف

لما فيها من عسر وتعقيد ، ولكني استطعت رغم ذلك أن ألتقط من حديثه مع إحدى الفراشتين ألفاظاً متناثرة علمت منها ما يريد .

قالت فراشة تحدث البرغوث الوثاب ، وقد ضاق صدرها بلهوه وعبثه :

— هلا اصطنعت يا أخي شيئاً من الجد في ساعة يجد فيها الحديث ؟ ما كل ساعة للهو واللعب

— وفي أي أمر خطير تتحدثان ؟

— في هذه النشوة التي أخذتك بغير مبرر معقول

— وأي حافز للطرب أشد وأقوى من عالم فسيح خلقه الله لي ألهو فيه وأمرح ؟ ...

فقالت الفراشة الثانية :

— أخلق الله هذا العالم الفسيح لك أنت ؟ وماذا تقول إذن في الإنسان الذي سخر الطبيعة بعقله الجبار ؟ !

— ومن تقصدين ؟ أتريدين هذا الحيوان الذي ضمزت فيه رجلان وطالت رجلان ؟ هل تعلمين لماذا خلق الله هذا الإنسان ؟ هل تعلمين فيم سعي هذا المسكين آناء الليل وأطراف النهار ؟ ليطعمَ فيجود لحمه فيصبح طعاماً شهياً للبراغيث . ألا ما أشقى عالم البراغيث إن لم يكن بين صنوف الحيوان هذا الإنسان ! !

وجاءت بعوضة تسعى ، تهز جناحيها الصغيرين طيّاً ونشراً ، وأخذت تدنو من الفراشتين قليلاً قليلاً ، ومالت برأسها تستمع للحديث ، فلما استجمعت أطرافه اقتربت من الفراشتين ولبثت بينهما صامتة . وحدّث ما شئت عما ملأ نفسي من سرور حين رأيت البعوضة تهم بالكلام ، لأنني بلغت في فهمها حداً بعيداً بحيث لا تخفى علي من ألفاظها خافية ، ولأني عهدت في البعوض حكمة عجيبة وعلماً واسعاً ، لست أدري أني له بمثله ، ولا أنفك يوماً عن التفكير في هذه الحشرة الغريبة ، فهل جاءها العلم مكسوباً من تجاريب الحياة ، أم هو موهوب مفطور في جبلّتها ؟

قالت البعوضة بعد صمت :

— فيم الحوار ؟

فأجابت الفراشة المتحمسة ، ولعل حماستها مستمدة من شبابها :

— في آدمي زعم لقومه أن كل شيء في الطبيعة يرقب أملاً واحداً هو الإنسان ، كما ينتظر كبار البيت بلوغ طفل عزيز : كل شيء في البيت مسخر للطفل ، يضحك له إذا ضحك ، ويألم إذا تألم ! ثم زعم لقومه — ويا هول ما زعم — أن الليل والنهار والحيوان الآبد والداجن ، والأزهار والثمار والأنهار والجبال ، وألوان الشفق في الأصائل والأسحار ... كل هذا وغير هذا من صنوف ما يطوي الكون بين دفتيه ، إنما خلق للإنسان ! !

قالت البعوضة :

— ومن يكون هذا الإنسان ؟

— قرد نهض على قدميه

— أو يكون النهوض على الأقدام كفيلاً له بهذا كله ؟ هل تعلمين يا عزيزتي أن هذا الإنسان أحدث صنوف الحيوان عهداً بهذه الأرض

— عرفت ذلك من زميلتي منذ دقائق

— إن كانت كائنات الله قد خلقت لينعم بها الإنسان وحده ، فمن ذا كان يستمتع بها قبل ظهوره ؟

فأجابت الفراشة المجوز في رزانة :

— قال كاتبهم هذا البليغ ، إن ذلك كله صُوَرٌ جاءت قبله لتزخرف له المسرح ... إنها حروف تتألف منها الرواية التي يمثلها الإنسان !

— ويحه ! هل صَوَّرَ الخيال لهذا المغرور أن الله قد زَيَّنَ الطاووس بريشه الجميل ليُمتِعَ الإنسانُ ناظريه ، ورقّشَ الأفعى لينظر إليها الإنسان وهي تتلوى وتتحوى في صندوقها الزجاجي في حديقة الحيوان ؟ وماذا هو قائل في الجراثيم التي تفتك ببدنه لتعيش ؟ تلك الجراثيم التي إن أفلح في نزع واحدة منها مما يسكن في جوفه ، باضت له ألوف الألوف من صغارها ؟ ... لو أنصف المسكين لعلم أن الله جلت قدرته أبدع قصيدة الكون العظمى منظومة منغومة ، والإنسان بيت من أبياتها . إن سر الوجود ليستعلن في الجرثومة الضئيلة كما يستعلن في الإنسان والقرد والأفعى ! إنها أنغام تتسق كلها لتنشئ موسيقى الوجود ! وهل ينظم الشاعر ببيت واحد أكثر مما ينظم بقصيدة عامرة بالأبيات والقوافي ؟

فقالت الفراشة المجوز :

— أراكم تعجبون وليس في الأمر ما يدعو إلى العجب ! لقد ذكرتم أن الإنسان بين صنوف الحيوان طفل وليد . إنه ما يزال يعبث في مهده ويلهو ، أفيكون عجيباً من الطفل أن يتشبث بالأشياء ويمسك بها في قبضته صائحاً : هذا كله لي ، لي وحدي دون سواي ؟ فاغفروا له هذه النزعة الصبيانية حتى تُسلمه